(٣٠) وقدر لهم أقدار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أقسام الناس حيال العلاقة بين الشرع والقدر ثلاثة أقسام: مشركية، ومجوسية، وإبليسية. ويقابلهم في أمة محمد ﷺ فرقة من الفرق، فلنتأمل:

أما المشركية: فهم الذين قالوا: **{لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام: ١٤٨]** ، أرأيتم هذه الدعوى؟ دعوى المشركين الذين بُعث فيهم النبي ﷺ، يقول الله تعالى: **{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ}**، صحيح، لو شاء ما أشركوا، لكن هل لهم حجة بهذا؟ أم لا؟ لا، لا حجة لهم، فإن الله تعالى قد أبطل دعواهم بثلاثة ردود في ختام الآية فقال: **{كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [الأنعام: ١٤٨]**: فسمى الله مقالتهم: كذب. لمخالفتها للواقع، ثم قال: **{حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا} [الأنعام: ١٤٨]**: ولو كان لهم حجة في القدر ما أذاقهم الله بأسه، لأن الله حكم عدل مقسط لا يظلم مثقال ذرة، ثم قال ثالثاً ناسفاً أي شهة عقلية: **{قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١٤٨]**: يعني هل اطلعتم على كتابكم ووجدتم أنكم تشركون وتحرمون ما أحل الله وتحلون ما حرم الله؟ هل اطلعتم على اللوح المحفوظ؟ **{قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا}**: الواقع: لا، إذن ما حقيقة الأمر؟ **{إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ}**، فهم يخبطون في التيه ويتخرصون، لا حجة لهم في القدر.

من يقابل هؤلاء في هذه الأمة؟ الجبرية، لأن الجبرية يقولون: العبد مجبور على فعله، فربما أتى أحدهم الطوام الكبار وقال: هذه بقدر الله. وصار يتعلل بالقدر لشربه الخمر غشيانه الزنا وأكله الربا، كل شيء بقدر، هذا بقدر، كما يفعل بعض البطالين حينما يُنصح ويؤمر بالمعروف ويُنهى عن المنكر يقول: يا أخي: هذا بقدر، كل شيء بقدر. يقال له: لم تشرب الخمر؟ قال: إنما شربتها بقدر الله. صل يا فلان، قال: لو شاء الله أن أصلي لصليت. يحتج بقدر الله على ترك الواجبات وفعل المحرمات، فالله تعالى قد أبطل هذه الحجة من قبل بما سمعتم، وبطرق أخرى.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

موقف المشركية من الشرع والقدر: المشركون إذن ماذا؟ أثبتوا القدر وأنكروا الشرع، أليس كذلك؟ أثبتوا القدر لأنهم قالوا: **{لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا}**، إذن هم أثبتوا القدر وأنكروا الشرع، ومثلهم الجبرية: الجبرية يثبتون القدر ويتحللون من الشرع.

القسم الثاني: المجوسية: نسبة إلى المجوس، نسبة إلى المجوس: وهم القائلون بخالقَين: إله النور يخلق الخير، وإله الظلمة يخلق الشر.

والمجوسية: أثبتوا الشرع وأنكروا القدر: فإنهم يقولون: لابد من فعل الأوامر واجتناب المناهي، خلافاً لمن سبقهم من الجبرية المشركية، قالوا: لابد، لأن العبد يخلق فعل نفسه، فعليه أن يفعل الطاعات ويترك المحرمات. لكنهم أفسدوا ذلك بزعمهم أن الله لم يقدر ذلك، أنكروا القدر، فأثبتوا مع الله خالقِين بعدد الناس، فلذلك سُموا: مجوسية. إذن المشركية أثبتت القدر وأنكرت الشرع، والمجوسية: أثبتت الشرع ونفت القدر.

بقي القسم الثالث: وهم الإبليسية: نسبة إلى إبليس، فإن هؤلاء **أثبتوا الشرع والقدر لكن زعموا أن بينهما تناقضاً**، أثبتوا الشرع والقدر لكن زعموا أن بينهما تناقضاً وأن هذا خلاف الحكمة. عياذاً بالله.

وسبب نسبتهم إلى إبليس: أن إبليس كان مقراً بقدر الله السابق، وكان مقراً بوجوب طاعته وترك معصيته، لكن اعترض على الله عز وجل وقال: **{ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } [الإسراء: ٦١] {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢]** ، فهو من حيث المبدأ مقر بأن الله تعالى يخلق ويقدر، ومقر بأن لله أن يأمر وينهى لكن حمله الكبر –والعياذ بالله– على أن يرى أن بين قدر الله وشرعه تناقضاً، فاعترض وأبى أن يسجد لآدم.

فيوجد صنف من الناس من الزنادقة: من يطعن في الشريعة؛ فيقول: كيف؟ لا يمكن، هذا لا يستقيم، أرأيتم ذاك الذي قال:

يد بمخس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

هؤلاء الذين يطعنون في الشريعة، ويقرون بالقدر السابق، ويقرون بأنه لا من أن لله أن يأمر وينهى، لكنهم يطعنون في الشرع بالاعتراض عليه وانتقاده.

هؤلاء يقال لهم: إبليسية. ويوجد أفراد في الناس عندهم هذا الدخل وعندهم هذا الاعتراض على الله عز وجل، لم تطمئن قلوبهم بالإيمان.

أما أهل السنة والجماعة: فإنهم هدوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، وأثبتوا الشرع والقدر على وجه لا تعارض بينهما، فقالوا: **إن الله تعالى قدر المقادير وقسم الناس فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير،**

وعلم سبحانه بسابق علمه من سيطيعه ومن سيعصيه، (قبض قبضة فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي. وقبض قبضة وقال: هؤلاء في النار ولا أبالي)، فالله تعالى بعلمه السابق محيط بكل شيء، كما أنه سبحانه كتب ذلك المعلوم، كما دلت على ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، حتى خرج النبي ﷺ مرة ومعه كتابان: فقال عن أحدهما: (هذا كتاب فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، وهذا كتاب فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم)، وأن الله تعالى شاء من الطائع الطاعة، ومن العاصي المعصية، فلا يكون في ملكه ما لا يريد، العبد يريد، والرب يريد ولا يكون إلا ما يريد الرب، الله تعالى له مشيئته النافذة، لا يمكن أن يكون في ملكه ما لا يريد، وإلا لكان ذلك انتقاصاً للربوبية، (اللهم: لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد) (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن)، لم يزل أهل الإسلام يقولون ذلك، والله تعالى خالق كل شيء، لا يخرج عن خلقه شيء من الأشياء، لا الذوات ولا الصفات ولا الحركات: **{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات: ٩٦]**: **{وَمَا تَعْمَلُونَ}**: للمفسرين فيها قولان: يعني والله خلقكم وخلق أعمالكم. وقيل: أن المراد بـ**{وَمَا تَعْمَلُونَ}**: يعني الأصنام التي تعبدونها.

إذن هذا هو منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب الدقيق الخطير الذي يكثر فيه الغلط والشغب، فعلى المؤمن أن يطيب نفساً ويقر عيناً وألا يتشاغل بالتفكير في القدر، يعني لا يتشاغل في استكناه القدر، ماذا كُتب له؟ هذا ليس بمقدورك، هذا سر مكنون، وسيأتي في كلام الطحاوي –رحمه الله– جملاً في هذا المعنى، فليس من العقل ولا من الحزم ولا من الشرع أن يُمعن الإنسان في التفكير فيما قُدر له، هذا أمر لا سبيل لك إليه، **وإنما الحزم والعقل والشرع أن تشتغل فيما أُمرت به وما نُهيت عنه، فتتعرض لطاعات الله ومراضيه، وتتجنب مساخطه ومعاصيه،** هكذا تكون خطة الحياة ومشروع العمر أن يشتغل الإنسان بطاعة الله، فحينئذ ييسره الله لليسرى، ولهذا إذا قيل لك: هل العبد مسير؟ أم مخير؟ فقل: هذا سؤال فاسد: ليس مسيراً بإطلاق، ولا مخيراً بإطلاق، **ولكن يقال: ميسر. لا مسير ولا مخير بإطلاق،** لكن يقال: ميسر. والدليل على ذلك قول الله تعالى: **{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}، وقال النبي ﷺ: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)**، فلا تجد أدل من هذا التعبير: التعبير بـ(ميسر)، خرج النبي ﷺ مرة في جنازة ولما يلحد القبر واجتمع عليه أصحابه فقال ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة أو النار)، قالوا: يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: (لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة)، ثم تلا قول الله تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل: ٥ – ١٠]**.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

إذا علمت هذا –يا عبد الله– اطمأن قلبك وارتاح فؤادك وأقبلت على أمر دينك ودنياك بصدر منشرح ونفس متشوفة وجد وعزيمة، فإن هذا يحفزك على العمل الصالح والاستكثار منه، ويكون قلبك معلقاً بين الخوف والرجاء، بهذا تنتظم معادلة الحياة، بل لا يمكن أن يحصل للبشر ابتلاء إلا بهذه الصفة التي وضعها الله تعالى، وأما ما يقترحه المقترحون من الجبرية أو القدرية فإن هذا متعذر ولا يحصل الابتلاء بأن يعلم العبد بأنهم مجبور، إذن إذا علم أنه مجبور فلم العمل؟ كما تبادر إلى أذهان الصحابة أولاً، قالوا: يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ هكذا يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، ولهذا لا تبتئسوا حينما ترد بعض الواردات على خواطركم في باب القدر، فقد وردت على من هم خير منكم، وهم الصحابة رضوان الله عليهم، لكن: (وإنما شفاء العي السؤال)، فالذي يسأل لكي يستجلي مع يعني حصول الإقرار والإيقان من حيث الجملة فهو على خير، لا بأس أن يسأل وأن يطلب كشف ما يعرض له من إشكالات وشبهات كما وقع للصحابة، وتأملوا كيف أن النبي ﷺ لم يعنفهم حينما قالوا: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ بل بيّن لهم بياناً شافياً وأجابهم جواباً واضحاً، ودلل عليه من كتاب الله، واطمأنت نفوسهم بهذا الجواب.

فمثل هذه الواردات قد تخطر على قلب المؤمن فيُرعب منها، وقد وقع هذا لبعض التابعين، فوقع في نفسه شيء من القدر، فأتى أربعة من أصحاب النبي ﷺ يسألهم ويعني يريد أن يخرج ما في قلبه من هذا، فكلهم حدثه بنفس الحديث بألفاظه عن النبي ﷺ، ف، حتى أذهب الله عنه ما يجد.

فلو عدنا إلى جمل المصنف –رحمه الله– لننظر فيها بعد هذا العرض نجد أنه قال: **خلق الخلق بعلمه:** إذن هذه مرتبة العلم: علم الله السابق المحيط بكل شيء، فخلقه لعباده خلق وفق علم.

وقدر لهم أقداراً: فالله سبحانه وتعالى كتب مقاديرهم وما هم عاملون؟ كل أحد بحسبه. واعلموا أن تقدير الله سبحانه وتعالى تارة يكون جملة، وتارة يكون تفصيلاً، **وذلك أن قلم التقدير أنواع:**

فثم تقدير كوني، وثم تقدير عمري، وثم تقدير حولي، وثم تقدير يومي. ولا تعارض بين هذه التقديرات، بل هي نوع من التفصيل أو الاستنساخ لما في الأصل.

فالتقدير الكوني: التقدير الكوني: هو الذي في أم الكتاب، في اللوح المحفوظ: الذي قد كتب الله تعالى فيه كل شيء: **{كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس: ١٢] {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } [الرعد: ٣٩]**: ف**{أُمُّ الْكِتَابِ}** وال**{إِمَامٍ مُبِينٍ}**: هو اللوح المحفوظ الذي فيه جميع المقادير، فهذا التقدير قد دل علي قول النبي ﷺ: (لما خلق الله القلم قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة)، و(جفت الأقلام ورفعت الصحف) كما قال النبي ﷺ. هذا هو التقدير الكوني.

أما التقدير العمري: ويسمى: الجنيني: فهو ما دل عليه حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي يسمى أحياناً: حديث الصادق المصدوق. وفيه: (إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد)، من أين للملك هذا؟ مما استنسخه من اللوح المحفوظ.

أما التقدير الحولي: فهو ما يقدره الله تعالى ليلة القدر. يقول الله سبحانه وتعالى: **{حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } [الدخان: ١ – ٤]** **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}**، وهي ليلة القدر، ما أدرانا أنها ليلة القدر؟ أن الله تعالى قد قال: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } [القدر: ١، ٢]** وقال في آية البقرة: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨٥]** ، فبمجموع هذه الآيات علمنا بأن ليلة القدر تكون في رمضان، وأنه يفرق فيها كل أمر حكيم، فيقدر الله تعالى في ليلة القدر ما يكون في ذلك العام من حياة وموت وصحة ومرض وعز وذل، سبحانه وبحمده، (يرفع القسط ويخفضه)، وهو أيضاً لا يتعارض مع ما سبق، بل هو مما يستنسخ من اللوح المحفوظ.

وأما التقدير اليومي: فهو ما دل عليه قول الله تعالى: **{ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩]** ، وورد في ذلك أحاديث، لكن الآية تغني عنه، إذ الحديث فيه مقال.

فصارت هذه التقديرات تقديرات تكون أحياناً على سبيل التفصيل، وأحياناً على سبيل الجملة، يعني بالمعنى العموم.

إذن: قال الشيخ –رحمه الله–: وقدر لهم أقداراً، وضرب لهم آجالاً: بلا شك أن الله سبحانه وتعالى قد أجل لكل حي أجلاً، ووقت له أجلاً، **خلافاً للمعتزلة التي تقول: إن المقتول قُطع عليه أجله.** المعتزلة من إفكهم أنهم يقولون: المقتول قُطع عليه أجله، ولا كان المفروض إنه يمتد حتى يموت ميتة طبيعية، ولكن القاتل قطع عليه الأجل. إلى غير ذلك من الإرادات الباطلة، لكن الحق أن هذا هو أجله:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

فالله تعالى قد ضرب لهم آجالاً، يقول النبي ﷺ: (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا وأجملوا في الطلب): ثقوا تمام الثقة مهما ابتعث الإنسان وضاق صدره على فراق الأحبة وغير ذلك ثق تمام الثقة أنه لم يبق له ثانية واحدة فاتته، قد استكمل رزقه وأجله، لم يبق له ريال واحد، قد

استوفى رزقه وأجله، **وبهذا يتبين خطأ بعض الناس حينما يعزي ويقول: البقية في حياتك.** ما بقيت بقية، أليس كذلك؟ ليس هناك بقية، لو كان هناك بقية لاستوفاها، لكن لم يبق شيء، قد استكمل رزقه وأجله، فلهذا قال النبي ﷺ: (فاتقوا الله وأجملوا في الطلب): فأنت ستنال ما كُتب لك، فلا تذهب نفسك حسرات، لا تتلهف على حصول الشيء، لم يقل النبي ﷺ: لا تطلبوا الرزق، ولا تسعوا. لا، قال: (أجملوا في الطلب): يعني سر سيراً متئداً، سيراً فيها مهل، ليس فيه إشفاق ولا لهفة ولا تحسر، فلن تنال إلا ما كُتب لك. وهذا من ثمرات الإيمان بالقدر كما هو معلوم.

قال: وضرب لهم آجالاً، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم: إي والله، قد الله تعالى ما الخلق عاملون، فهو عليم بكل شيء، ومن تأمل –يا إخوة– في يعني آيات العلم أدرك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء، تأمل قول الله عز وجل: **{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]** ، يعني لو أطلقت الخيال في تصور معاني هذه الآيات وجريانها في الواقع لدُهشت، كل شيء يعلمه الله عز وجل، حتى ورقة تتهادى من شجرة في غابة من غابات الأرض وتستقر على وجه الأرض الله يعلمها، أنت لا تستطيع أن تحيط بشجرة في حديقة منزلك، وتعرف ماذا وقع منها من ورق وما لم يقع؟!. وربنا سبحانه يعلم بهذه الدقائق والتفاصيل: **{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} [الرعد: ٨]**: **{كُلُّ أُنثَى}**: ليس فقط من إناث بني آدم، **{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد: ٨، ٩]** ، فعلم الله عز وجل لا يمكن أن يخرج عنه شيء من الأشياء، ولما لقي الخضر موسى ﷺ، أو لقي موسى الخضر ووقفا على سيف البحر فجاء عصفور فنقر من ماء البحر نقرة أو نقرتين، فقال الخضر لموسى: (يا موسى: ما ترى أن هذا العصفور نقص من ماء البحر؟ قال: وما عسى أن ينقص من ماء البحر؟) حجم منقار العصفور يعني مللي مكعب ولّا ماذا؟ في هذا البحر الخضم! قال: (فإن علمي وعلمك وعلم الناس جميعاً في علم الله كما نقص هذا العصفور من البحر) **{وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥]** ، ولا تعبأن بهؤلاء السذج الزنادقة الذين يقولون: تمكن الإنسان من اكتساح العلوم والإحاطة فيما مضى أن يقال: **{وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}**، أما الآن فقد توسعت العلوم. مساكين هؤلاء، يظنون أنهم قد أخذوا العلوم وأنهم قد نالوا كل شيء، كل علومهم كما سمعتم في الحديث لا تمثل إلا كما، قال: (وعلم الناس جميعاً إلا كما نقص العصفور من ماء البحر)، لكن هذا مبناه على ذلك الفصام الذي جرى بين الأوربيين وبين دينهم وكنيستهم،

جعلهم يشعرون بهذه العدائية، وأن المسألة نوع من الاقتناص والاغتصاب للعلم، هذه النظرة هي التي تسللت وتسربت إلى بعض الأدبيات.

قال: وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم: نعم، وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: الأمر أنف. القدرية الغلاة الذين يقولون: الأمر أنف. وهم معبد الجهني، وتلقاه من بعده، من بعده من تلقاها، فبعد ذلك انقرض أمرهم من شناعة مقالاتهم، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في الواسطية، قال: ومنكروه اليوم قليل. ومنكروه اليوم: يعني العلم. قليل.

قال: وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته: نبه بهذا –رحمه الله– أنه لا تعارض بين إثبات القدر السابق وبين إثبات الشرع، فهو وإن كان قد قدر عليهم المقادير وعلم ما الخلق عاملون فقد أمرهم ونهاهم، فلا تعارض بين الشرع والقدر.

قال: وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته: في هذا إشارة إلى مرتبة المشيئة.

وكل شيء يجري بمشيئته وقدره، ومشيئته تنفذ: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢] ، فإياك أن يتسلل إليك شك في هذا.

إرادة الله –معشر طلبة العلم–نوعان:

إرادة كونية، وإرادة شرعية.

الإرادة الكونية: هي المشيئة.

والإرادة الشرعية: هي المحبة.

ميز بين المقامين، لأن من لم يميز بين الإرادتين زل، وإما أن يأخذ بقول الجبرية أو بقول القدرية، كيف؟ كل ما وصفه الله تعالى بأنه مراد له فهو لا يخلو: إما أن يكون مراداً كوناً فهذا لابد من وقوعه، وإما أن يكون مراد شرعاً، فهذا قد يقع، وقد لا يقع.

إذن هذا هو الفرق الأول بين الإرادتين الكونية و الشرعية.

الإرادة الكونية: لابد من وقوعها. دليلها: **{ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢].**

الإرادة الشرعية: قد تقع وقد لا تقع. يقول الله تعالى: **{ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥]** ، أليس العسر يقع للناس ولبعض المسلمين؟ بلى، لأنه أراد الله لهم ذلك شرعاً لو أنهم أطاعوه وامتثلوا أمره، لكن إن هم خالفوا أمره لم يقع ذلك اليسر ولحقهم العسر.

الفرق الثاني: أن الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها الله ولا يرضاها.

أما الإرادة الشرعية فدوماً محبوبة لله تعالى. يقول الله عز وجل: **{وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}**، فالإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها، مثل إرادته سبحانه خلق محمد ﷺ، أراد كوناً خلق الأنبياء وإنزال الكتب. هذا إرادة كونية محبوبة لله عز وجل. وقد يريد كوناً ما لا يحبه، كوجود الكفر والمعاصي والزلازل والبراكين والفساد وخلق إبليس، خلق إبليس من إرادته الكونية.

أما الإرادة الشرعية فدوماً محبوبة لله تعالى. فكل ما أراده شرعاً من الصلاة والزكاة والحج والصوم وغير ذلك من الفضائل فإنه محبوب لله تعالى.

الفرق الثالث: أن الإرادة الكونية قد تكون مقصود لذاتها، وقد تكون مقصودة لغيرها.

أما الإرادة الشرعية فإنها مقصودة لذاتها دوماً.

كيف؟ الإرادة الكونية قد تكون مقصودة لذاتها: فالله أراد كوناً خلق محمد ﷺ لذات هذا الأمر، أراد الله إنزال الكتب، إرسال الرسل، لذات هذا الأمر، لأن الخير بين يديه.

وقد تكون غير مرادة لذاتها: كخلق إبليس. فهو قد أراد خلق إبليس، لكن لم يرده لذاته، لكن لما يترتب عليه، (والشر ليس إليك): الشر لا يضاف إلى الله، (لبيك وسعديك والخير بين يديك، والشر ليس إليك)، فإبليس ليس مراداً لذاته، خلق الحيات والعقارب والبراكين والزلازل والجرائم وغير ذلك ليس مراداً لذاته، لكن لما يترتب عليه.

فعلى سبيل المثال: خلق إبليس: لولا خلق إبليس لما تميز المؤمنون من الكفار، ولا الأبرار من الفجار، ولما قام سوق الجنة والنار، بل ولما ظهرت معاني أسماء الله الحسنى وصفاته، فإن هذا لا يظهر إلا بها، كلما وجدت التوبة لما وجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما وجد الجهاد في سبيل الله، كم من المصالح العظيمة حصلت بسبب إرادة الله كوناً خلق إبليس؟ ولله في ذلك حكمة غائية عظيمة، فلا يكن الإنسان ساذجاً إذا أُلقي عليه مثل هذه الشبهات قال: لماذا خلق الله الحيات والعقارب؟ لماذا خلق الله الأمراض؟ لماذا يمرض الأطفال ويتأوهون وهم، يعني طفل بريء؟ إلى غير ذلك من الإرادات، هذا إنما يفعله الزنادقة لإلقاء الشبهات في القلوب، حتى يقال: إن الجهم بن صفوان السمرقندي، وهو من رؤوس الجبرية، مع أنه جهمي، فقد جمع الجيمات الثلاثة: جيم التجهم، وجيم الجبر، وجيم الإرجاء، كان يخرج بأصحابه إلى الزمنى والمجزومين ويقول: انظر، انظر، كيف يفعل الله بهذا؟ هذا يدل على أنه ليس متصفاً بالرحمة. عياذاً بالله. إذن: هكذا، هذا الفرق الثالث.

أما ما أراده الله تعالى شرعاً فإنه مقصود لذاته: فالله تعالى يعني شرع الزكاة الصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر الفضائل لذاتها، فلابد من التمييز بين الإرادتين، فمن جعل الإرادتين إرادة واحدة شرعية فهو قدري، ومن جعل الإرادتين إرادة واحدة وهي الكونية فهو جبري، لهذا قال، قال، نعم: فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن. ثم ذكر مسألة الهداية والإضلال، ولعلنا نرجئ الكلام عنها في الدرس القادم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.